في المدينة إلاّ وتوجهت لزيارة (گويليو رومانو) الرسام المبدع الذي سبق لي ذكره وكان من أعزّ أصدقائي. فرحّب بي ترحيباً حاراً. إلاّ انه إمتعض جداً مني لأني لم أنزل في داره فور قدومي. وكان يعيش عيشه السادة العظام وقد استخدمه الدوق في عملٍ بمحلّ خارج أسوار المدينة يعرف بإسم (دل تي del Té)[١٠٩]. وهو مشروع ضخم على مقياس واسع كما أتوقع أن يبدو اليوم. ولم يضع (رومانو) وقتاً في التوصية بي عند الدوق بعبارات ثناء حارة. وبنتيجة ذلك كلّفني بعمل موديل وعاء لدم المسيح الذي جاء به لونجينس[١١٠] على زعم أهالي مانتوا - وعندما عهد اليّ بالعمل التفت الى (گويليو) وطلب منه أن يتولى تخطيط التصميم لي فأجابه (گويليو):

- مولاي إن (بنڤنوتو) ليس بالرجل الذي يحتاج الى تصاميم الآخرين. وسيرى سموكم رأيي هذا عندما يعرض عليكم تصميمه.

بدأت العمل بالانموذج بحيث جعلت الحُقّ الأصلي يدخل في الوعاء بكلّ تساوق وانسجام ثم صنعت نموذجاً صغيراً من الشمع للغطاء وهو عبارة عن تمثال للسيد المسيح جالسٌ يرفع يده اليسرى القابضة على صليب كبير وهو متكيء عليه وصّورت يده اليمنى كأنها تهم بفتح الجرح في جنبه باصبعه.

إنتهيت من النموذج وكان سرور الدوق به عظيماً بحيث جعلني أفهم بأنه سيحتفظ بي في خدمته بشروط تجعلني أحيا حياةً مرفهة. وفي خلال ذلك ذهبت للسّلام على أخيه الكردينال[١١١] الذي كان قد رجا سموه أن يسمح لي بصنع ختمٍ له. فباشرت به إلاّ اني أصبت بحمى الرُبع أثناء عملي فيه، وكنت أهذي وأفقد الوعي عندما تعاودني. وفي هذه الحالة أروح ألعن (مانتوا) ومن يحكمها وكلّ من يسكن فيها مختاراً لامجبراً.

كل ما قلته نقله الى الدوق صانعه الميلاني بعد أن أدرك جيداً أن الدوق يرغب في استخدامي. وعندما أبلغ الدوق بهذياني هذا غضب غضباً شديداً ولما كنت حانقاً على مانتوا، فقد ضاهى انفعاله انفعالي. على أية حال انتهيت من ختم الكردينال وقد صرفت فيه مع أشياء صغيرة أخرى له على حساب الدوق زهاء أربعة أشهر. وكان نيافته كريماً جداً في مكافأتي ورجاني أن أعود الى روما حيث كان مبدء تعرفي به.

تركت (مانتوا) وجيبي مملوء وحللت في (گوڤنولو Govenolo) وهو الموضع الذي شهد مصرع البطل المغوار النبيل جيوڤاني[١١٢] وفيه عاودتني الحمّى فترةً قصيرة إلاّ انها لم تعوّقني عن مواصلة السفر. وقد طردتها عني بسرعة وكان هذا آخر هجمة لها وآخر عهدي بها. وصلت فلورنسا مشتاقاً لرؤية

(١٠٩) يقع خارج باب پوستريا في مانتوا. وقد أشرف رومانو على بنائه وزخرفه مع فنانين آخرين.

(١١٠) فيلسوف وخطيب يوناني (٢١٣-٢٧٣). كان وزيراً لزنوبيا ملكة تدمر ونفي معها الى إيطاليا عندما قهرها الرومان.

(١١١) هو كردينال أركولي Arcole. واسمه فردريكو گونزكا. كان أسقف مانتوا ثم نصب كردينالاً في ١٥٢٧، وتولى الوصاية بعد وفاة أخيه الدوق. توفي أثناء ترأسه مجمع ترنت في ١٥٦٣.

(١١٢) جيوڤاني دي مديتشي (دللا باندي) وقد سبق التعريف به في حواش سابقة.

الوالد. وجدت باب الدار مغلقاً فطرقتُه فبدا لي من النافذة عجوز حَدباء عجفاء وراحت تنثال عليّ بالشتائم وطردتني قائلة أن النظر الى وجهي يصيبها بالغثيان فصحت بها:

– عونك اللّهم أليس ثمَّ شخص آخر في البيت غيرك أيتها الشمطاء الشوهاء؟

– كَلاّ لعنك الله لا أحد هنا.

قلت:

– كلّ ما أتمنّاه هو أننا لن نستبقيك عندنا طويلاً.

وسمعت الضجة جارة لنا فخرجت وأخبرتني بأن والدي وكل من كان في الدار قد أدركهم الأجل المحتوم بالطاعون[١١٣] وبما أن قلبي كان يحدثني ويهجس لي بهذه الفاجعة فقد خفّف ذلك من لوعتي وأضطرابي. ثم أضافت الجارة تقول: لم يسلم من الموت إلاّ أختى الصغيرة ليپراتا وإنها الان تحت رعاية أمرأة صالحة تدعى (اندريه دي بيلاّچي).

توجهت الى الفندق ولقيت وأنا في طريقي صديقاً عزيزاً يدعى (جيوڤاني ريگولي Giovanmi Rigogli). فترجلت عند منزله وانطلقنا الى الميدان الكبير وسمعتُ هناك ان أخي ايضاً مازال في قيد الحياة. فرحت أبحث عنه ووجدته في دار صديقه (برتينو آلدو براندي Bertino Aldo Brandi). ولا تسل عن فرحنا وعن عواطفنا المتدفقة. فقد كان كل منا يعتقد أن أخاه ميت. وتعانقنا وتحاضنّا بشوق لايحدّ. ثم أنه قبض على يدي وهو يقهقهه ضاحكاً طوال الوقت وقال:

– هيا بنا يا أخ. سآخذك الى مكان ما لن تحزره. عليَّ أن أخبرك بأني زوّجتُ شقيقتنا ليپراتا ثانيةً. وهي تحسبك في عداد الأموات.

وفي طريقنا إليها صار بعضنا يخبر بعضاً عن التجارب العجيبة التي مرّت بنا. ثم عندما وصلنا دار ليپراتا ووقع نظرها عليّ سقطت متهالكة بين ذراعيّ وقد انعقل لسانها بهذه الزيارة المباغتة وأغمى عليها. ولو لم يكن أخي معي لساورت زوجها الظنون في أن أكون أي شخص خلا أخاها، بسبب غشيتها وإنعقال لسانها. والواقع أن الشك بدء يساوره إلاّ أن (چكينو) شرح كل شيء. وعالج ليپراتها حتى أفاقت. وبعد أن ذرفت بعض الدموع لذكرى أبيها وأختها وزوجها وابنها الصغير بدأت تهيئ لنا عشاءً. وقضينا بقية الأمسية بإنشراح ولم نأت الى ذكر الموتى ثانيةً. بل تحدثنا عن الزيجات والأعراس وتمتعنا بهذا الإحتفال الصغير.

ومع قيام الرغبة عندي في العودة الى روما. إلاّ أن رجاء أخي وأختي نجح في ابقائي. حتى (پييرو دي جيوڤاني لاندي) نفسه ذو الأيادي البيضاء والذي بذل العون الكبير لي في محني السابقة كما ذكرتُ – فقد نصحني هو الآخر بالبقاء في فلورنسا فترةً من الزمن. ولما طرد آل مديتشي[١١٤] (أعني

(١١٣) مات في فلورنسا حوالي أربعين الف نسمة بوباء الطاعون الذي اجتاح المدينة مابين أيار وتشرين الثاني ١٥٢٧.

(١١٤) انتهز الجمهورين فرصتهم بحصار روما وإعتقال الپاپا كليمنت (١٥٢٧) في قلعة سانت انجلو فثاروا بزعامة (آل پانيسوني) على حكامهم وطردوهم وأعيد النظام الجمهوري وأُنتخب نيقولو كاپوني Niccolo Capponi گونفالونيراً.=

النبيلين: ايپوليتو Ippolito و ألسّاندرو. وأولهما نصب فيما بعد كردينالاً وثانيهما أختير دوقاً). أشار عليّ الصَديق (پييرو) بالتريث والبقاء ترقباً لما سيحدث. لذلك بدأت أزاول صنعتي في السوق الجديد وراجت أعمالي في تكفيت الأحجار الكريمة وربحت مالاً كثيراً.

في ذلك الحين قدم من سيينا شخص يدعى (جيرولامو ماريتّي Girolamo Marretti) كان خارق الذكاء ذا حيوية، قضى شطراً من حياته في تركيا. جاء الى دكاني ذات يومٍ وكلفنني بعمل طغراء من الذهب لمقدمة قبعته. وأوصى أن يمثل النقش المحفور صورة (هرقل) وهو يعالج فتح شدقي الأسد قسراً. وفي أثناء إشتغالي بها ؛كت أحظى بعدة زيارات من (ميكالنجلو بوناروتي). عانيت مشقة كبيرة في هذه الطغراء. وفتحت فتحاً جديداً في تصميمي للصورة وفي طريقة تعبيري لشراسة الأسد. وكان (ميكالنجلو) الخالد يجهل تماماً أسلوبي الذي كان جديداً بالنسبة إليه. وقد أدى ذلك به الى إمتداح عملي والإشادة به حتى شعرت وكأن نار الطموح للإجادة والسمو بالعمل تحرقني حرقاً. على أنه لم يكن لدي ما أعمله سوى تكفيت الجواهر ومع أن ربحي من هذا كان كبيراً إلاّ أني لم أقنع به. ولم يرو غلّتي فقد كنت أريد أن أجرّب خطيّ في فنون أسمى من فن تكفيت الجواهر. ثم ظهر المدعو (فيدريگو جينوري Federego Ginori) في أفق حياتي. كان شاباً يتدفق حيويّة قضى جانباً من حياته في نابُلي حيث أكسبته وسامته وقامته الممشوقة وحضور بديهتة شهرة داوية حتى أن إحدى الأميرات عشقته وأصبحت خليلته. واتفق انه رغب في ان تُصنع له طغراء يظهر فيها (أطلس) وهو يحمل الدنيا على كتفيه، فرجا من (ميكالنجلو) ان يخطط له رسماً تقريبياً. فقال له:

– اذهب، ابحث عن صائغ شاب يدعى (بنڤنوتو) وسيرضيك عمله بالتأكيد، ثق انه لن يحتاج الى نموذج منيّ. ولكي لاتظنّ اني أُمسك نفسي عنك في أمرٍ بسيط كهذا فساخطّ لك تصميماً وفي عين الوقت اتصل ببنڤنوتو وأطلب منه نموذجاً صغيراً أيضاً. وسيكون في وسعك عندئذ اختيار أفضلهما.

فجاءني (فيدريگو جينوري) وفاتحني بمطلبه ونقل لي الثناء العاطر الذي أغدقه عليّ (ميكالنجلو) ورغبته في أن أصنع نموذجاً صغيراً من الشمع في حين وعده (ميكالنجلو) العظيم بعمل مخطط.

كان لأقوال (ميكالنجلو) عني تأثيراً الإلهام والوحي في نفسي، وبدون أن أضيع دقيقة واحدة باشرت متلهفاً بصنع النموذج. وبعد فراغي منه جاءني رسام يدعى (گويليانو بوجياردينى Giuliano

=وفي العام ١٥٢٩ عقد الصلح النهائي بين الپاپا والإمبراطور وكان من شروطه اعادة آل مديتشي الى الحكم فسيق جيش الى المدينة وأُلقى عليها الحصار ولم تستسلم إلاّ بعد أحد عشر شهراً. وعاد (اليساندرو) لتولى الحكم بموافقة الإمبراطور. ومع أن سعة عقل هذا الدوق وإدراكه الواسع أكسباه محبة الفلورنسيين إلاّ أن قوته وخشونته وفرضه الضرائب والأتاوات والعمل على الاثراء الشخصي أسخطت الناس عليه. وانتهز قريبه وعشيره لورنزو هذه النقمة فاغتاله ظاناً انه سيرتفع في نظر الجمهور الساخط على القتيل وتنشب ثورة في المدينة فيها غنم كبير له. فلم يحصل هذا واضطر الى الهروب.

Bugiardini) من أخلص أصدقاء (ميكالنجلو) يحمل لي الرسم، فأطلعت (گويليانو) على نموذجي الشمعي الصغير في عين الوقت وكان يختلف تماماً عن المخطط. وكانت النتيجة أن (فيدريگو) فضلاً عن (بوجياردیني) حكماً أن أتخذ نموذجي الشمعي أساساً. فبدأت بصنعه وشاهده العليم الخبير (ميكالنجلو) فلم يجد عنده غير الثناء العظيم عليَّ. وكما ذكرت في الأول كان ثم صورة أطلس[١١٥] محفورة في صفحة رقيقة من الذهب ومثلث قبة السماء بكرة بلوريّة حُفرت فيها دائرة البروج في حقلٍ من اللاّزورد وأكملتا بنقش عبارة Summa tulisse في الأسفل فخرجت تحفة يجلّ جمالها عن كل وصف. وحازت رضا (فيدريگو) ونقدني عنها أجراً عالياً. وكان أثناء تردده الى دكاني يأتي مع صديقه الحميم (آلويجي آلاماني Aluigi Alamanni)[١١٦] وهو آنذاك في فلورنسا. فكان ذلك سبباً في نشوء صداقة متينة بيننا.

أعلن الپاپا (كليمنت) الحرب على فلورنسا. ووضعت المدينة في حالة الدفاع وعبثت المليشيا في كل ميدان من المدينة. وكان عليّ أن أنتظم فيها أيضاً. فتجهزت بشكة سلاح وعدة حربٍ فاخرة وأنضممت الى فريق أرفع النبلاء الفلورنسيين وكان يبدو على كلّ فردٍ منهم الحماسة والشوق للمساهمة في الدفاع. وكالعادة راح الخطباء في الميادين العامة والساحات الكبرى يستنهضون الهمم والى جانب هذا بدأ شبان فلورنسا يتجمعون سوية ولاحديث لهم غير الحرب. وفي ذات يوم إلتأم في دكاني جمع من الأشخاص بينهم رجال شجعان في عنفوان رجولتهم وشبان أشداء في مقتبل العمر ينتمون جميعاً ألى أعرق وأهم أُسر المدينة. وكان الوقت ظهراً وفي أثناء ذلك تسلّمت رسالة من روما أرسلها اليّ رجل من تلك المدينة يدعى (الأستاذ جاكوبينو دللاّ باركا Maestro Jaiobino della Barca). وأسمه الحقيقي في الواقع هو (جاكوبو دللاّ باركا). لأنه كان يملك عبّارة للنقل في نهر التيبر بين (پونتوسِستو Ponto Sisto)[١١٧] وبين (پونتو سانت أنجلو) رائحة غاديةً. كان (جاكوبو) هذا إنساناً ذكياً ومحدثاً بارعاً ذا فكاهة وسرعة خاطر. وكان الى زمن غير بعيد مصمماً لحائكي السجّاد في فلورنسا. وهو الآن من خاصّة الپاپا كليمنت المقربين وكان هذا يأنس جداً بأحاديثه. ويبدو أنّ الپاپا كان يجاذبه ذات مرّة أطراف الحديث فأنجرّ بهما الى أحداث حصار روما ودفاع القلعة. فتذكرني الپاپا بالكتابة اليّ ودعوتي.

وتضمن الكتاب ضرورة الإنضواء في خدمة الپاپا وما سيصيبني من خيرٍ أن لبيتُ الدعوة. كاد الشوق يقتل الشباب المجتمع عندي لمعرفة محتويات الرسالة. وكان عليَّ أن أكتم الأمر عنهم ماوسعني. بعد ذلك كتبت لجاكوبو راجياً منه أن لا يراسلني بأي شكل كان وفي أيّ ظرفٍ شراً كان أم

(١١٥) في أساطير الإغريق. أحد العمالقة الذين حاربوا الألهة. حكم عليه زفس (جوبتر) زعيم الآلهة أن يحمل قبة السماء على كتفيه.

(١١٦) أديب وشاعر فلورنسي وواحد من أبرز معارضي أسرة دي مديتشي ومقاومي إستبدادهم. نفي الى فرنسا وعاش في حماية فرنسوا الأول وتوفي في ١٥٥٦.

(١١٧) اي بين الجسرين اللذين ذُكرا في المتن. اي سيستو وسانت انجلو.

خيراً. وهذا ما جعله أكثر عزماً وتصميماً فكتب اليّ ثانيةً باسهاب وتفصيل وتهويل قد يلحقني منه أذىً كبير لو انكشف فحوى رسالته. قال: ان الپاپا خوّله بأن يأمرني بالتوجه الى روما فوراً. وانه ينوي تقليدي منصباً في غاية الأهمية فان أردتُ أن أحقق نجاحي في الحياة وأعيش في بحبوحة فعليَّ أن أترك كل شيء دون تأخير والاّ أبقى أقاتل الپاپا مع ارهاط من الثوار المجانين. قرأت الرسالة فامتلأتُ خوفاً ولجأت إلى صديقي العزيز (پييرو لاندي) وما أن وقع نظره عليّ حتى سألني ماذا حصل لي ودهاني لأبدو بهذه الحالة من القلق. قلت اني لا أستطيع مصارحته بالسبب الذي أدّى بي الى هذه الحالة. وكل ما أرجوه منه أن يتسلم مفاتيحي وأن يعيد الجواهر والذهب الى فلان وفلان المثبتة أسماؤهم في دفترٍ صغيرٍ. ثم ينقل كل مقتناي من داري ويحافظ عليه بلطفه وكرمه المأثورين. واني سأعلمه بمكاني خلال بضعة أيام. إن هذا الشاب ذا الفكر الثاقب والنظر النفاذ ربما حزر ما أضمره أو كاد فقد أجابني قائلاً:

– عزيزي الأخ، أذهب حالاً ثم أكتب لي. وأمّا عن أشيائك فثق إنها ستكون في حرز حريز.

نفذت ما نصحني به وتركت فلورنسا وعند وصولي روما كتبتُ له. فيا رعاه الله من صديق صدوق! أشدّ وفاء وأرجح عقلاً وأعلى خلقاً وأعظم إيثاراً وأكبر قلباً من أي صديق آخر عرفته!!

حال وصولي روما رحت أفتشّ عن أصدقائي وكان إستقبالهم وترحيبهم بي حاراً. وشرعت في مزاولة صنعتي فوراً لأتزود بشيء من المال ولم أصنع شيئاً هاماً يستحق الذكر والوصف. كان ثمّ صائغ كبير السنّ ذو سمعة عالية في النقابة معروف بأمانته وإستقامته يدعى (رافايلوو دل مورو Raffaello del Moro) طلب مني هذا الرجل بأدب أن أشتغل في دكانه ان شئت. فقد كُلّف ببعض الأشغال الهامة يضيق بها وقته وفيها ربح كبير. فأسرعت بالقبول مسروراً.

مَرّ أكثر من عشرة أيام دون أن أفكر في التوجه الى (جاكوبو دللاّ باركا) وفي ذات يوم إلتقى بي بمحض الصدفة فرحبّ بي أجمل ترحيب وسألني كَمّ مَرّ عليّ وأنا هنا فقلت حوالي أسبوعين فاستاء جداً وقال إنيّ تصرفت بشكلٍ خالٍ من اللياقة تجاه الپاپا الذي سبق فأصرّ على أن يكتب لي ثلاث مرات ملحفاً. ولما لم أكن أقلّ انزعاجاً منه فقد كظمتُ ما أشعر به من غيظ ورفضت أن أنطق بحرفٍ.

وعندها شرع (جاكوبو) الذي عرف بالحذلقة والثرثرة يرتجل خطبة وتدفقت العبارات من حلقه كصيب الغيث.

فصبرت عليه حتى أفرغ ما في جوفه. وقلت: بإمكانه أن يأخذني الى الپاپا متى شاء ولم أزد. فأجاب: الآن نذهب اذن. فأجبت اني لعلى أتم استعداد وأنطلقنا معاً الى القصر. وبالإتفاق كان اليوم (خميس الغُسل Maunday) عندما وصلنا جناح الپاپا سمح لنا بالدخول رأساً لأن رفيقي كان معروفاً ولأن قدومي كان متوقعاً. فوجدنا الپاپا قد أوى الى فراشه بسبب وعكة بسيطة. وكان عنده كلّ من السيد (جاكوبو سالڤياتي) ورئيس أساقفة كاپوا Capua[١١٨] ما أن وقعت إنظار قداسته عليّ حتى

(١١٨) مدينة تقع على مسافة ٢٨ كيلومتراً من شمال (ناپُلي).

انبسطت أسارير وجهه وبان عليه السرور فقبلت قدميه بكلّ خشوع وإتضاع ثم دنوت منه وجعلته يدرك بأني أريد التحدث معه في أمرٍ هام. فأتى بإشارة من يده تقهقر على أثرها كلّ من جاكوبو ورئيس الاساقفة الى مسافةٍ عنا فبادرت فوراً الى القول:

- أيها الأب الكليّ القداسة. منذ أيام حصار روما وأنا لم أعترف بخطاياي ولم أتناول القربان المقدس. إذ لا أحد يمنحني الحَلّة والغفران. وما حصل هو هذا. عندما صهرت الذهب وقمت بكلّ ما ينبغي عمله من نزع الأحجار الكريمة أمر قداستك (كاڤاليريرينو) بأن يدفع لي مكافأة صغيرة لقاء أتعابي. ولكن كُلّ ما نلتُ منه هو الإساءة. وبعد أن عدت إلى غرفتي حيث قمت بإذابة الذهب عمدتُ الى غسل الرماد ووجدت فيه ما تبلغ زنته پاوند أو نصف الپاوند من حبّات الذهب الصغيرة بحجم بذرات الدّخن. ولما كنت خالي الوفاض لا أملك ما استعين به على السفر الى مسقط رأسي والوصول أليها بشكل لائق![١١٩] فقررت أن أستعين بهذا الذهب على أن اردّه إليك عند سنوح الفرصة لي. وها أنذا الآن عند قدمي قداستك الغافر الذنوب الحقيقي. اناشدك بأن تجيز لي الإعتراف وتناول القربان المقدس، لأستطيع برضاك نيل رضى الله.

وأطلق الپاپا تنهيدة خافتة - ربما لتذكره كلّ ما عاناه ثم قال:

- بنڤنوتو! بالتأكيد أنا هو ذاك الذي قلتَ فيّ إني لقادر على حَلّك من جميع الخطايا التي اقترفتها. وأكثر من هذا إني لراغب في ذلك كن مطمئناً ولاتخشى مصارحتي بكلّ شيء ولاتكتم عني حتى ولو كان ما أخذت يعادل تاجاً پاپاوياً: Tiara. اني أكثر من مستعدٍ لأمنحك الغفران.

فأجبته:

- يا صاحب القداسة. لقد أعترفت بكلّ ما أخذتُ. وقد بلغت قيمته عند صرفه في دار الضرب بـ(پيروجيا) ما لايزيد عن مائة وأربعين دوقية. أخذت النقود وذهبت لأصلح بها حال والدي الشيخ المعدم.

قال الپاپا:

- أثبت أبوك بأعماله إنه انسان فاضل مستقيم ذو ملكات ومواهب لم تلد أُمّ من هو بمثل طيبته وأنت شبيهه بالضبط. ويؤسفني أنْ كانت النقود قليلة. وأنا أقدمها لك هبةً خالصة وأمنحك الغفران الكامل. قُل هذا لمعرفّك إن كان ضميرك خالياً من أي شيء يتعلق بي. ثم بعد أن تعترف وتتناول القربان، عد اليّ ثانيةً. وسيكون الخير ذلك في هذا.

بعد إنصرافي من لدنه دنا منه جاكوبو سالڤياتي ورئيس الأساقفة فأنشأ يتكلم عني لهما بحرارة تفوق الحرارة التي يمدح بها أي انسان آخر. وقال بأني إعترفت له وإنه منحني الغفران. وأمر رئيس الأساقفة بأن يرسل في طلبي ويسألني عما إذ كان هنا كأمرٌ آخر يقلقني وأن يمنحني المغفرة الكاملة وأعطاه السلطان المطلق لذلك وزاد بأن أوصاه أن يعاملني بما يسعه من لطفٍ.

وإستولى على (جاكوبينو) ونحن في طريقنا عائدين نوع من الفضول فظلّ يسألني عن محتوى

(١١٩) هذا القول يناقض مارواه عن نفسه عند بلوغه فلورنسا بعد الحصار.

حديثي الطويل الذي تمّ بمثل هذه السريّة مع البابا. وظلّ يلحّ في السؤال فقلت بالأخير: اني لا أعتزم إخباره إذ ليس في الحديث ما يهمّه شخصياً. وليكفّ عن السؤال.

أنجزت كلّ ما تمّ ترتيبه مع البابا من المراسيم الدينية. وما أن خرجنا من يومي العيد حتى ذهبت للسلام عليه. وكان في ترحيبه بي أكثر لطفاً من المرة الأولى وقال:

– لو وصلت روما قبل هذا بقليل لعهدت إليك بإعادة صنع هذين التاجين العائدين لي اللذين أذبناهما في القلعة. ولكن لما كانت قيمتهما بذاتهما وبدون الجواهر – غير كبيرة. فإني سأسند إليك عملاً في غاية الأهمية، سيتيح لك الفرصة لإظهار كفاءتك. إنها عرُوة لغفّارتي[١٢٠] أريدها بحجم صحفة صغيرة وبإستدارتها، قطرها ثلث كوبيت (ستة أنجات). النقش سيمثل صورة الله الأب بنصف بروز وعليك أن ترصع في الوسط هذه الألماسة الدقيقة القطوع، فضلاً عن عدد كبير من الأحجار الكريمة. كان قد بدء بها رجل يدعى (كاردوسوّ Caradosso) ولم يتمّها وأنا أريدك أن تنتهي منها بسرعة لأنعم قليلاً بلبسها. فاذهب وأصنع لي نموذجاً جيداً. ثم أمر بعرض كل الأحجار الكريمة عليّ. وبعدها انطلقت الى داري كالقذيفة...

توفى (فيدريگو جينوري) بداء السلّ أثناء حصار فلورنسا. وآلت الطغراء التي صنعتها له الى (لويجي آلاماني). وهذا بدوره أخذها وقدمها مع طائفة من أروع آثاره القلمية هدية الى ملك فرنسا (فرانسوا الأول). فَسرّ بها الملك سروراً لا حدّ له وقام الرجل الألمعي (لويجي آلاماني) باعطاء جلالته نبذة عنيّ كرجلٍ فضلاً عن مواهبي كفنّانٍ ومدحني فأفرط في مدحي مما حمل الملك على إبداء رغبته في التعرف بي.

وفي عين الوقت كنت قد وقفت كل وقتي ومجهودي على إكمال نموذج لعروة غفّارة البابا بالحجم الطبيعي كما أراده بالضبط. إن هذه الثقة التي أودعت بي. أثارت سخط كثير من أرباب الصنعة الذين كانوا يعتقدون يرون أنفسهم أهلاً لها فحقدوا عليَّ. وكان ثمّ شخص يدعى (ميكيلوتّو Mich-elotto) ماهر جداً في الحفر على العقيق فضلاً عن كونه جوهرياً بارعاً، ورجلٌ له خبرة السنين وصيت العمل الدقيق وهو عين الصائغ الذي كلّفه البابا بصياغة التاجين البابويين. أعرب هذا الرجل عن دهشته لأني لم أقصده للمشاورة فيما عهد به البابا اليّ وهو القدير الكفوء موضع ثقة قداسته. وبعد أن تأكد بأني لا أنوي مراجعته قصدني هو نفسه وسألني بم أشتغل؟ فأجبته:

– بما عهد اليّ البابا؟

فقال:

– فوضنّي البابا بالإشراف على كلّ عملٍ يعود الى قداسته.

فقلت:

– عليّ أن أستفسر من قداسته أولاً وسيكون في وسعي بعد ذلك أن أختار الجواب المناسب لطلبه.

(١٢٠) هذه التحفة الشهيرة من أعمال چلليني نزعت من الغفّارة وأضيف ثمن ذهبها وأحجارها الكريمة الى مبلغ الغرامة الحربية التي فرضها نابُليون بونابَرت (أنظر پلوّن ص ١٤٥).

فأنفعل من ردّي وقال:
- إنك ستندم على هذا.
وأنصرف عنيّ حانقاً.

ثمّ إنه اجتمع مع كل أعضاء النقابة الآخرين وبعد التداول في الأمر قرروا أن يتركوا القضية في يده وبرأيه. وكانت خطوته الماكرة التالية هي جمع أكثر من ثلاثين نموذجاً تخطيطيّاً لعروة الغفارّة عملها عددٌ من الرسامين الماهرين. ولما كان وثيق الصلة بالپاپا محترم الرأي عنده، فقد اتفق مع جوهري آخر من أهل ميلان يدعى (پومپيو) وهو من المقربين جداً عند قداسته كما يمتُّ بصلة القرابة إلى أمين الخزانة الپاپاوية (تريانو Traiano). هذان الصائغان أعني پوكپيو وميكيلى أبلغا الپاپا بأنهما شاهدا نموذجي ومنه يبدو إني غير كفوء لإنجاز مثل هذا العمل البالغ الدقة.

فأجابهما الپاپا بأنه يريد الإطلاع عليه أيضاً، فإن وجدني قاصراً عن الأمر حقاً فسيعهد بالعمل الى آخر من الأكفاء. فبينا له أن في حوزتهما الآن نماذج جميلة وهي كاملة. فأجاب الپاپا إنه مسرور لسماع ذلك. إلاّ أنه يفضل أن لايتفحصّ النماذج قبل فراغي من نموذجي، وعندئذ سيفاضل بين الجميع. فرغت من نموذجي في بضعة أيام وأخذته الى الپاپا في صباح يومٍ فأعاقني السيد (ترايانو) وسارع في إستدعاء (ميكيلوتو وپومپيو) فحضرا مع نماذجهما. ثم دخلنا جميعاً وخفّ الصائغان الى عرض الرسوم وكان شوق الپاپا لرؤيتها لايقل عن لهفتهما الى عرضها.

إن المصممين الذين لايمارسون صنعة التكفيت بالأحجار الكريمة لايدرون كيف ينسقون الجواهر في الحلية أو يضعونها في اماكنها المناسبة. إذ لم يتلقوا درساً على يد خبراء مُجربين قضوا وقتاً في مجال الممارسة. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الجواهري بارعاً في التأليف بين ما يرسمه من تهاويل وصور على المعدن وبين توزيع الأحجار الكريمة في ثنايا رسومه على الحلية وإلاّ لايعود لعمله قيمة فنية. لذلك كنت تجد الألماسة الرائعة في كل الرسوم المعروضة وقد جُعل موضعها وسط صدر اللّه الأب. هذه الهفوة لم تخف عن عين الپاپا الناقدة. وهو صاحب الذوق السليم ومتذوق الفن الرفيع. فلم يحفل بها. إذ بعد أن تفقدّ عشرةً منها القى بالباقي على الأرض واستدار نحوي وكنت واقفاً عن كثب وقال لي:

- ألا فلنلق نظرةً على أنموذجك يا بنڤنوتو. ونأمل الاّ تكون قد وقعت في الغلط نفسه.

فتقدمت منه وفتحت علبة صغيرة مستديرة. وهنا أضاءت عينا الپاپا بنور مفاجيء وهتف يقول:

- ماكنت ستعملها بأفضل من هذا حتى ولو تقمصتَ نفسي. وهؤلاء الآخرون ماكانوا ليجدوا وسيلةً يحطون بها من قدرهم أفضل مما فعلوا.

ثم تجمع عدد كبير من كبار الأشراف حولنا وراح الپاپا يشير إلى الفرق بين نموذجي والنماذج الأخرى. وارتفع بمدحه الى السِّماكيْن. في حين سُمّر الصائغان في مكانهما فَرَقاً وذهولاً وهما منتصبان أمامه. ثم إنه التفت اليّ وقال:

- إني لا أرى إلاّ عقبة واحدة. إلاّ إنها هامّة جداً يا بنڤنوتو. فالشمع مادة لينة مطواعة ومن السهل

الإشتغال بها. والإمتحان الحقيقي هو عندما يشتغل المرء بالذهب.

فأسرعت الى الإجابة بحرارة:

- أيها الأب الأقدس. هذا عهدُ بيني وبينك إن لم أصنع الحلية بشكل يفوق عشرة أضعاف النموذج دقةً وجمالاً فإني لن اتقاضى منك دانقاً واحداً.

فشاع لغط عام وارتفعت أصوات من بعض رجال الحاشية المحيطين بنا. وقال منهم قائل: إني أسرف في الوعود. إلاّ أن أحدهم وهو فيلسوف كبير جداً التزم جانبي وتكلم في صالحي إذ قال:

- من سيماء هذا الشاب وتناسق أعضاء جسمه، أجدني واثقاً من أي شيء يعد به بل وأكثر.

فأضاف البابا قائلاً:

- لهذا السبب أتفق معك.

ثم استدعى أمين سرّه (ترايانو) وأمره أن يأتي من الخزانة بخمسمائة دوقيّة ذهبية وفيما نحن ننتظر عاد قداسته يتأمل طريقتي الفذّة في براعة التأليف بين الألماسة وبين صورة الله ألاب. كُلّ مافعلتُ هو أني وضعت الألماسة في المركز تماماً. وصورة الله الأب وهو ملتفت برشاقة الى جهةٍ - يجلس فوقها. وكان تأليفاً في غاية الأناقة والجمال لاينقص من تأثير الألماسة. وجعلت تحتها ثلاثة من صغار الملائكة يسندون الحجر الكريم بأيديهم مرفوعة الى الأعلى وجعلت الملاك الأوسط بارزاً تماماً في حين نقشت الآخرين بنصف بروز وأضفت عدداً آخر من الملائكة الصغار بتناسقٍ مع الأحجار الكريمة الأخرى وألبست صورة الأب جبة فضفاضة تتطاير في الهواء ويخرج من حناياها عدد من الملائكة الصغار (الكروبيم) وكان ثمّ زخارف أخرى جميلة تزيد في الصورة العامة روعةً وكلهّا عملت بالجص الأبيض على الحجر الأسود.

عندما جيء بالمال قام البابا بتسليمه اليّ بنفسه ثم رجا مني بلطفٍ ساحرٍ أن أنجزها بأسرع ما يمكن وهو في قيد الحياة ليسرّ بها وأضاف يقول إني لأنفع نفسي بذلك.

أخذت المال وانصرفت ومعي نموذجي وبلهفتي الى البدء بالعمل خلت أن دهراً إنقضى قبل الوصول الى الدكان. وبعد ثمانية أيام من العمل الشاق المتواصل أرسل البابا أحد أمنائه وهو نبيل من أهل (بولونيا) رفيع القدر. وطلب مني أن أخذ العروة الى البابا وأعلمني هذا السيد الذي لايدانيه أحد في البلاط لطفاً ورقةً ان الغرض من استدعائي هو رغبة صاحب القداسة في القاء نظرة على ما أنجزته فيها فضلاً عن تكليفي بعمل آخر لايقل عنها أهمية وهو حفر قوالب لسكة دار الضرب في روما. وأوصاني بأن أستعد للإجابة عن إستفسارات البابا وأسئلته بهذا الشأن. فأُدخلتُ إليه وعرضت عليه الصحيفة الذهبية الرقيقة ولم يكن فيها غير صورة (الأب) إلاّ أن دقة التصوير فاقت النموذج الشمعي فلم يتمالك البابا نفسه وهتف مشدوهاً:

- إعتباراً من الآن سأصدق كلّ ما تقول.

وبعد أن أمطرني بوابل من الثناء اردف يقول:

- أريد أن اكل إليك مهمّة ثانية لاتقل أهميتها عندي عن الأولى وربما فاقتها وأملى أن تنجح فيها.

ثم بسط لي رغبته في أن يكون لسكتّه قوالب خاصة وسألني عن مبلغ خبرتي وهل سبق لي أن مارست مثل هذه الصناعة. وكم أراني أهلاً للاضطلاع بها. فأجبت إني راغبٌ وأن لي ثقة بمقدرتي. وقلت إني قد تابعت الطريقة وشاهدت كيف تجري لكني لم أطبقها عملياً بنفسي.

كان المدعو (توماسوّ دا پراتو Tommaso da Prato) الداتاريو الپاپوي[١٢١] حاضراً في هذه المقابلة. ولكونه صديقاً لخصومي فقد تدخل بقوله:

- أبانا الأقدس إنك تُغرق هذا الشاب بثقتك إغراقاً وهو شديد التلهف إليها بحيث بات مستعداً للوعد بخلق دنيا جديدة. لقد أوكلت إليه عملاً خطيراً وأنت تعهد إليه الآن بعملٍ أخطر وستكون النتيجة أن يعوق أحدهما الآخر.

التفت الپاپا إليه وهو حانق تماماً وأمره ألاّ يتدخل فيما لايعنيه. ثم طلب منيّ أن أعمل له نموذجاً لدوبلون ذهبي[١٢٢] يُشاهد فيه السيد المسيح عارياً موثق اليدين من الآية (هوذا الرجل Ecce Homo) وعلى الظهر پاپا وإمبراطور كلاهما ممسكان بصليب قائم مع إنحراف قليل وعبارة "وكان فيهم روح واحدة وإيمان واحد Unus spiritus et una fides erat in eis". ما أن أكمل الپاپا توصياته لي بشأن هذه العملة الجميلة حتى دخل (باندنللو) النحّات وكان ذلك قبل أن يمنح لقب (فارس). وبمزيج من جهله وإدعائه الفارغ المعهود قال معقباً:

- يجب أن يزوّد الصاغة بتصاميم عندما يعهد إليهم بأشغال في مثل هذه الدقة والجمال.

فاستدرت نحوه واجبته في الحال إني في غنىً عن تصاميمه في مجال صناعتي. كما إني على ثقة بأنه لن يمرّ طويل زمن حتى تصيب تصاميمي تصاميمه بضربة موجعة. طرب الپاپا لقولي ثم مال نحوي وقال:

- والآن أذهب بسلام يا عزيزي بنڤنوتو وضع كلّ طاقاتك في خدمتي ولاتهتم بما يقوله هؤلاء الحمقى المغفلون.

فخرجّت وعملت بسرعة لاتصدق قالبين فولاذيين. ضربت بهما عُملةً ذهبيّة. وفي عصر يوم أحدٍ بعد الغداء حملت قطعة النقد مع القالبين الى الپاپا فأدهشه الأمر كما سَرّه لا لدقة الصنعة وحدها وهو ماخلف فيه إنطباعاً عظيماً بل لأني كنت سريعاً في إنجاز الطلب بشكل غير متوقع أبداً. ولكي أزيد من أعجاب الپاپا جئت بمسكوكات عتيقة من عمل أولئك الفنانين البارعين الذين كانوا في خدمة الپاپاوين (يوليوس وليون). وبعد أن تأكدت من إعجابه بقالبي وتفضيله إياه على مارآه. أخرجت من جيبي طلباً مكتوباً رجوته فيه إسناد منصب مراقب دار الضرب لي. وكان الراتب الشهري لهذه الوظيفة ستة كراونات ذهبية. عدا أجرة القوالب التي تدفع من قبل المدير العام لدار الضرب بنسبة دوقية واحدة لكلّ ثلاثة. فأخذ الپاپا عريضتي والتفت وناولها للداتاريو وأمره أن يبتّ في الطلب

(١٢١) الداتاريو Datario الپاپوي هو السكرتير الأول لدائرة المظالم والشكاوى والاسترحامات. ويتولاهما من هو في درجة أسقف أو كردينال.

(١٢٢) الدوبلون هو أسم العملة الذهبية الإسپانية الرائجة في ذلك العصر.

بالايجاب على الفور. فأخذ الداتاريو العريضة وقال وهو يدسّها في جيبه:
- أيها الأب الأقدس أرى أن لايستعجل قداستك بهذا القدر. فهذه الأُمور تستدعي كثيراً من المداولة والتمحيص.
فأجاب البابا:
- سمعتَ ما قلتُ. والآن هات العريضة.
أمسك بها ووقعها بإندفاع ثم أعادها مشفوعة بهذه العبارة:
- لا أظنك تملك الآن أي جواب على هذا. فعجّل بالإجراءات وتلك مشيئتي إن حذاء (بنڤنوتو) أغلى قيمة من أعين كل أولئك المغفّلين.
شكرت فضل قداسته وعدت الى عملي والدنيا لاتسعني من فرط السرور.

لم أترك دكان (رافاياللو دل مورو) وبقيت أزاول عملي عنده. كان لهذا الرجل الفاضل إبنة فتية في غاية الجمال. وكان يضعني نصب عينه كُلمّا فكر في أمر مستقبلها متمنياً في سِرّه أن أتزوجها. وقد هجست نيته بعض الشيء فرحبت بها ووقعت من نفسي موقعاً حسناً. إلاّ أني لم أظهر ماينمُّ عما أضمره وأشعر به. في الواقع كنت شديد التحفظ والانطواء مما أثار دهشته. واتفق أن داءً خبيثاً أصاب يد الفتاة المسكينة اليمنى وسرت الأكلة في عظمتي خنصرها وعظمة بنصرها وتسبب إهمال أبيها أن يتولى علاجها دَجّال مشعبذ قال إن لم يحصل الأسوء فإن الشلل هو المتوقع للذراع كلها. وهصر الألم قلب الوالد المسكين ولما وجدته في هذه الحالة المفجعة صارحته بأني لا أثق بقول هذا الطبيب الجاهل أبداً. فقال إنه لايعرف طبيباً ولا جراحّياً وليس من أصدقائه من يمتهن الطب ورجاني أن آتي بطبيب إن كنت على معرفة بأحدهم. ولم أضع وقتاً وأستدعيت طبيباً أسمه (جاكوبو) وهو جراحّي من پيروجيا ذو سمعة وشهرة. لاتسل عن الرعب الذي كان مستولياً على الفتاة إذ لابدّ وإنها حدست أقوال الدجال في عاقبة المرض. إلاّ أن الطبيب النطاسي الذي استقدمته قال بعد فحصها أن لا خطر ثمّ يتهددها مطلقاً. وستكون قادرة على إستخدام يدها بأحسن مايمكن وإن كان أصبعاها الأخيران سيظلان أضعف قليلاً من البقية. إلاّ أن هذا لن يكون عائقاً قط.

وبدء بعلاجه وبعد أيام قلائل عندما إرتأى أن يستأصل العظام المتسوّسة من الأصبعين. استدعاني أبوها لأشاهد شيئاً مما كان ستعانيه الفتاة المسكينة. كان الطبيب يريد استخدام عددٍ من الأدوات الجراحية البدائية المصنوعة من الحديد ورأيت انه لا يحققّ أي تقدم في عمليته وإنه سيسبب لها آلاماً فظيعة. فطلبتُ منه أن يتريث لمدة خمس دقائق حتى أعود. ثم هرعت الى دكاني وصنعت شفرةً فولاذية صغيرة معقوفة رقيقة ماضية كحدّ الموسى ثم عدتُ وبدأ الطبيب عمليته بها فأنجزها بيسر ولطف ولم تشعر الفتاة بألمٍ ما وتمت العملية والعلاج بمدة وجيزة. ولهذا تزايد حبّ الرجل لي ففاق حبّه لولديه وبذل الغالي والنفيس لكي تستردّ ابنته الجميلة صحتها.

في تلك الأيام ارتبطت بحبل الودّ مع السيد (جيوڤاني گادي G. Gaddi)[١٢٣] وهو موظف في بيت

(١٢٣) مواطن فلورنسي من أشد مشجعي الأدب والفن تحمساً. كان مديراً لبيت المال البابوي.

المال الپاپوي ومن عشاق الفن ومشجيعه. وإن كان هو نفسه عاطلاً عن مواهبه. وكان يشاطره السكن عالم متبحِّر بالآداب اليونانية يدعي (جيوڤاني)، وباحث آخر أيضاً يدعي (لودوڤيكو دا فانو Lo-dovico da Fano) والسيد (أنطونيو الليگريتي[١٢٤] Antonio Allegretti) والسيد (أنيبال كارو Annibal Caro)[١٢٥] وهو بعد شابٌ في مقبل العمر. وكنت أنا وذاك الرسام الممتاز (باستيانو Bastiano) البندقي[١٢٦] نستمتع بصحبتهم. وكنّا نجتمع بهم عند جيوڤاني كل يومٍ تقريباً. شاءت المقادير أن تكون صداقتي لجيوڤاني السبب في أن يسعى إليه الصائغ الفاضل (رافاييللو) ليقول له:

– سيدي العزيز جيوڤاني أظن إنك تعرف أي نوع من الناس أنا. ولي الآن رغبة في تزويج ابنتي الصغيرة من (بنڤنوتو) ولما كان يشقّ عليّ أن أجد وسيطاً أفضل من مقامك الشريف فقد قصدتك بهذا الأمر راجياً عونك. وإني أترك لك تحديد صداقها.

ما كان الرجل الطيب يختم كلامه حتى اندفع الأحمق المأفون يجيبه بلهجة جازمة وعبارات خرقاء لا طعم لها:

– أقفل هذا الموضوع يارافاييللو. فأنت بعيد عن مرامك هذا بُعد كانون الثاني عن ثمر العلّيق.

صُدم الرجل المسكين وخابت آماله فيّ، فحاول تزويج أبنته بآخر وحقدت عليّ الأم والبنت نفسها وبقية أفراد الأسرة وأنا لا أدرك السبب. وما استنتجت هو أنهم يقابلون إحساني بالأساءة وعطفي بالموجدة. فقررت أن أفتح لي دكاناً في عين الحيّ. ولم يخبرني (جيوڤاني) بشيء إلاّ بعد أن تمّ تزويج الفتاة. وقد حصل هذا بعد بضعة أشهر.

كنت في تلك الأثناء أعمل بجدّ لإنهاء القطعة وفي نفس الوقت أقوم بوظيفتي في دار الضرب ذلك لأن الپاپا أمرني بعمل تصميم لقطعة نقد أخرى بقيمة كارلينين إثنين[١٢٧] في وجهها تُنقش صورته. وفي ظهرها يُنقش منظر سير السيد المسيح فوق الماء ماداً يده الى تلميذه بطرس مع عبارة "Quare dubitasti = لماذا داخلك الشك؟". وقد أعجب بها الكلّ حتى أن واحداً من أمناء سرّ الپاپا يدعى (إل سانگا Sanga) وكان من أحسن الناس ثقافة وإطلاعاً قال لقداسته :

– فليفخر قداستك بهذه العملة فهي تفوق كل ماضربه القدماء لأنفسهم مع ما كانوا يتمتعون به مِن عزّ وما يحفّ بهم من مظاهر الرفعة والعظمة.

فردّ عليه الپاپا بقوله:

(١٢٤) شاعر فلورنسي.

(١٢٥) أحد أعاظم كتاب زمانه (١٥٠٧–١٥٦٦) ومن الشعراء المعدودين عرف بترجمة الاينياد وكان في ذلك الحين سكرتيراً لجيوڤاني گادي. وهو من أعز أصدقاء چلليني وعلى معرفة تامة بطبعه الناري الذي لا صلاح له (پلون ص٩٥).

(١٢٦) هو سباستيان دل پيومبو Sebastian del Piombo. رسام بندقي معروف (١٤٨٥–١٥٤٧) ولد في البندقية وامتاز بالوانه.

(١٢٧) مفردها (كارلين) عملة إيطالية عتيقة متغيرة القيمة.

– وكذلك فليفخر بنڤنوتو بخدمته امبراطوراً مثلي يقدّر قيمته.
وكنت أوالي عرض الحلية الذهبيّة الهامّة على البابا كل يوم بناء على طلبه فيزداد إعجاباً بها بإزدياد رؤيته إياها.

في ذلك الحين كان أحد اخوتي في خدمة الدوق أليساندرو وجاء الى روما بمعيته وكان الدوق الذي منحه البابا مؤخراً دوقية (پنّا Penna) قد استخدم عدداً كبيراً من المقاتلين الأشداء الممتازين الذين تلقوا تدريبهم في معهد جيوڤاني دي مديتشي. وقد برزوا كلهم بالإقدام والشجاعة. إلاّ أن الدوق كان يعدّ أخي واحداً من أشجع شجعانهم.
في ذات يوم بعد الغداء توجهنا الى دكان المدعو (باچينو دللاّ كروچي Baccino della Croci) ويقع بالقرب من الضفة حيث إعتاد هؤلاء العسكريون النجباء الإختلاف إليه. فانطرح على ضفة منه وأدركته سنةٌ من النوم. وفي تلك الأثناء مرت دورية من الشرطة تقود موقوفاً وهو كاپتن سابق في جيش جيوڤاني دي مديتشي من لومبارديا يدعى (چستي Cisti) ولم يكن آنئذ في خدمة الدوق. واتفق أن كاپتنَ آخر وهو (كاتيڤانزا دلگي ستروزي Cattivanza delgi Strozi) كان يقف عند باب الدكان. فلما رآه (چستي) صاح قائلاً:
– كنت في طريقي إليك لأفيك ما بذمتي لك من نقود قليلة. فإن أردتها فعليك أن تفعل شيئاً قبل أن يقفلوا عليها وعليّ باب السجن!
كان الكابتن (كاتيڤانزا) من أولئك الذين يدفعون الآخرين لخدمتهم ولايزجون أنفسهم في مكامن الخطر. فوجد عدداً من الشبان ذوي البأس والإقدام. لايحجمون عن أمثال هذه المغامرة، فتوجه إليهم وطلب منهم أن يلحقوا بالكابتن (چستي) ويتسلموا منه النقود. فإن إعترضت الشرطة سبيلهم فعليهم أن يثبتوا لهم ويبرهنوا على معدنهم بإستخدامهم القوة. وكانوا أربعة كلهم مرد لم تنبت لحاهم إن لم تعوزهم الشجاعة فهم يفتقرون الى الخبرة ولايصلحون لمثل هذا الأمر الكثير التعقيد. أحدهم كان يدعى (برتينو آلدو براندي) والآخر (اكويلوتّو دا لوگا) أما الآخران فلا أتذكر اسميهما. كان أولهما تحت أمرة أخي وهو الذي درّبه وبينهما مودّة وإخلاص.
أجل، اندفع هؤلاء الشبان الأربعة يتعقبون الشرطة الذين كانوا يزيدون عن الخمسين وهم مسلحّون بالبندقيات والحراب والسيوف الثقيلة ذات المقبضين. لم يطل الحديث بين الفريقين ووضع الأربعة أيديهم على سلاحهم وكان هجوماً عنيفاً صاعقاً فلو أظهر (كاتيڤانزا) وجههُ في تلك الساعة لولى الشرطة الأدبار دون حاجة منه الى إمتشاق سيفه.
وبعد معركة قصيرة أصيب (برتينو) بجرح بليغ وسقط على الأرض وأصيب (أكويلوتو) بجرح في ذراعه الأيمن أقعده عن إستعمال سيفه فانسحب ناجياً بجلده وحذا الآخران حذوه. ثم حُملَ (برتينو) وهو في حالة خطرة.
كل هذا جرى ونحن جلوس حول المائدة إذ قد جيء بوجبة الظهيرة متأخرة ساعة واحدة عن الموعد

المعتاد. سمع (جيوڤاني) الإبن الأكبر الضجة فنهض يريد أن يخرج لإستطلاع الأمر فناديته قائلاً:
- ناشدّتك الله لاتذهب ففي مثل المسائل لابدّ وأن تخسر شيئاً وليس ثم ربح فيها قطّ.

وتوسل به أبوه كيلا يخرج بقول مشابه. إلاّ إنه انطلق مسرعاً الى تحت غير ملتفت الى أقوالنا. وما أن بلغ الضفة حيث وقع القتال حتى رأى (برتينو) محمولاً. فكرَّ راجعاً بسرعة. وفي طريقه لقي أخي (چكينو) فاستوقفه وسأله ما الأمر. ومع أن بعض المستطرقين والمتفرجين أشار الى الفتى من طرفٍ خفيّ أن لايخبره بما وقع ويقفل فمه. إلاّ انه كالاهبل الأخرق - راح ينفض الحكاية برمتها وختمها بقوله ان الشرطة قتلت (برتينو) فأطلق أخي المفجوع صرخة عظيمة لاتخطئها الأذن عن مسافة عشرة أميال ثم سأل جيوڤاني:
- أيمكنك أن تصف لي قاتله؟

فأجاب (جيوڤاني):
- أجل. هو رجل يحمل سيفاً ذا مقبضين وثم ريشة زرقاء في قبعته.

فاندفع أخي المنكود وأدرك القاتل متعرفاً عليه من الوصف وبإقدامه المعهود قذف بنفسه الى وسط الدوريّة وفاجأ غريمه غير معطيه فرصةً وطعنه طعنةً نجلاء وجندله على الأرض والسيف غائب في بطنه حتى المقبض، ثم إستدار نحو البقية وهاجمهم بعنفٍ وشراسة وكاد يهزمهم جميعاً لولا أن واحداً من حملة البندقيات أطلق النار عليه دفاعاً عن نفسه فأصيب الفتى البائس السيء الحظّ بجرح في أعلى ركبته اليمنى. وفيما هو على الأرض مسجى تفرق الشرطة مسرعين خشية أن يهاجمهم مقاتل في مثل إقدامه.

ولما إستمرّ الضجيج تركت المائدة أنا الآخر وتمنطقت بسيفي (في تلك الأيام كلّ رجل كان يحمل سيفاً) وتوجهت الى جسر سانت انجلو، وهناك وجدت تجمعاً لعدد كبير من الناس وعرفني بعضهم فأفسح لي بشكل يلفت النظر الى شيء ماكنت لأرغب قطّ في تكبد العناء لرؤيته لو عرفت مسبقاً ماهو. في مبدء الأمر لم أتبينه، لأنه كان يرتدي ثياباً غير الثياب التي رأيتها عليه قبل ساعات فكان هو الأسبق الى معرفتي والى مخاطبتي قال:
- يا أعزَّ أخٍ. لاتحزن لما نزل بي من نكد طالع فصناعتي تحث خطاي الى ذلك. خذني من هنا بسرعة فما بقي لي من الحياة قليلٌ.

وفي أثناء ماكان يتكلم أطلعني بعض الواقفين بالإختصارٍ الذي يتطلبه الموقف على ماوقع، واجبته قائلاً:
- أخي إنه لأعظم مصابٍ بي. إنها الفاجعة الكبرى والقارعة القاصمة فلتطمئن نفسك بأني سأنتقم لك بيدي ممن أصابك قبل أن تغمض عينيك.

كانت كلماتنا ذات دلالة واضحة لكنها شديدة الإيجاز.

في تلك اللحظة كان فصيل الحرس على بعد خمسين خطوة منّا، ذلك لأن ضابطهم (مافيو Maffio) أمر قسماً منهم بالعودة لنقل العريف الذي قتله أخي فخففت الخَطى نحوهم. وقد لمت أطراف معطفي

حول جسمي لمًا محكماً. قصدت (مافيو) حتى صرت أمامه وكنت قاتله لامحالة لو لم أجدني محشوراً بين الجمع المحتشد حوله. ثم وبسرعة البرق إنتضيت سيفي حتى منتصفه ألاّ ان برلنگيير برلنگييري Berlinghier Berlinghieri) أسرع فكتفني من خلف. كان صديقاً عزيزاً جريئاً باسلاً لاشك في بسالته وكان معه أربعة من الفتيان من عياره.

فصاحوا (بمافيو):

– أمض لطيتك. فقد كاد هذا الرجل يصرعكَ وهو بمفرده.

فسأل "من هو؟"

فأجابوه:

– هو شقيق الرجل الذي تراه هناك.

كان هذا كل مايريد سماعه فأنسحب الى (تورّي دي نونا Torre di Nona)[١٢٨] برجاله فوراً. والتفتوا الي قائلين:

– حلنا دون ماترغَب يا بنڤنوتو مستخدمين القوة وما فعلنا هذا إلاّ حرصاً عليك والآن فلنذهب لمداراة الجريح أخيك فحاله تسوء بسرعة.

عدنا الى أخي فحملناه الى منزلٍ قريب وتشاور الأطباء الذين جيء بهم أثناء قيامهم بعلاجه إلاّ انهم لم يتوصلوا إلى رأي قاطع في بتر ساقه – ربما كان فيه نجاته – على كلٍ، ما أن ضمّد الجرح حتى أقبل الدوق السّاندرو وأخذ يوجه الى (چكينو) عبارات ملائ بالعطف والمواساة وهو مايزال مالكاً وعيه. فأجابه أخي:

– مولاي! إني لن آسف على شيء قدر أسفي على فقدانك خادماً قد لايكون أشجع كل جنودك لكنه غير قابل للتعويض بأيّ شخص آخر يخلص لك ويمحضك الودّ مثلي.

فقال له الدوق "عليك أن تفكر في إنقاذ حياتك فحسب. وأمّا عن الأمور الأخرى فأنا لا أجهل أبداً إخلاصك وبسالتك". ثم إلتفت الى أحد مرافقيه وأوصاه بأن يلبوا كل طلب للفتى الباسل ويكفوه كلّ حاجة.

وبعد أن إنصرف بدء جرح (چكينو) ينزف بشدة وتعذرّ ايقاف النزف ولم يكفّ عن الهذيان طول الليل التالي، إلاّ عندما همّوا بمناولته الأسرار الأخيرة، فقد قال:

– عليكم أن تعرّفوني أولاً ثم تناولوني القربان. والآن أصبح يتعذرّ أخذ القربان المقدس على هذا الجسم الفاني. ألا دعوني أخذه روحياً من خلال عينيّ وسيضيئ روحي الخالدة التي لاتطلب منه غير الرحمة والغفران.

بعد هذا القول نُحي القربان جانباً. وعاد يهذي مرّةً أخرى وخرج من فمه أقبح القول وأهول الهرف الشنيع. وإستمر هذا طول الليل دون إنقطاع. وبزوغ شمس اليوم التفتَ اليّ وقال:

– أخي العزيز. لاأريد أن أبقى هنا بعد الآن. لأنهم يرغموني على القيام بعملٍ يائس بحيث يجعلهم

(١٢٨) هو سجن المجرمين العاديين في روما.

يأسفون لإعتراضهم سبيلي.

ثم باعد مابين رجليه ورفع الجريحة منهما الى أعلى وكانت مستقرّة داخل صندوق ثقيل جداً، كأنما يهم بأمتطاء جوادٍ. أخيراً ادار وجهه نحوي وردد العبارة التالية ثلاث مرات:

- وداعاً وداعاً.

بهذه الكلمات خرجت روحه الشجاعة[١٢٩] في الوقت المناسب وهي الساعة الثانية والعشرين مساءً. دفنتهُ بإحتفال مهيب في كنيسة الفلورنسيين[١٣٠] ثم شيدت له ضريحاً من الرخام في غاية الجمال ونقشت فيه مجموعة من الرايات والبيارق وأعلاماً ولا أنسى أن أذكر هنا. إن رفيقاً له كان قد سأله أي واحد من حملة البندقيات أصابه وهو يستطيع تشخيصه فأجاب بالإيجاب ووصفه له. وقد حاول أخي بكلّ ما في وسعة أن يحول دون سماعي هذا، لكني أبلغتُ به وبشكل مفصل وسأبين ما أسفر عنه ذلك في الوقت المناسب.

أعود الى شاهد القبر الرخامي، فأقول تكرّم عليّ بعض الأدباء اللاّمعين الذين يعرفون أخي بقطعة تأبينية قالوا إن الفتى الشهم النبيل يستأهلها وإليك هي:

Francisco Cellino Florentino, qui quad in teneris annis ad Joannem Medicem ducem plures victorias retulit et signifis Buit, facile documen tum dedit quantae fortitudinis et consilii vir futurus erat ni Crudelis foitarchibuso tronsfurus fuit, quintre besto jaceret Bevenutus frater posuit. Obiit die xxvi, Maii ,MDXXIX.[١٣٢]

قضى نحبه وهو في الخامسة والعشرين وقد رغبت أن أثبت تحت شعار أسرتنا إسمه الذي به يناديه الجنود وهو "چكينو أبن الزامر Cecchino del Piffero"[١٣٢] (إما أسمه الحقيقي فهو (جيوفانفرانشسكو چلليني) فأمرت بحفر هذا الإسم بأحرف عتيقة الطراز في غاية الجمال كلها مكسورة عدا الحرفين الأول والأخير فقد جعلتهما مستقيمين. فسألني الأدباء الذين كتبوا التأبين عما ترمز إليه الحروف المتكسرّة فأجبت إنها جسمهُ تلك الآلة العجيبة قد تفسخت وتحللت أما الحرفان السالمان فالأول منهما يرمز الى عطية الله العظمى وهي روحه المتقدة بالقوة الربّانية الروح التي لايعتريها إنكسار. أما الحرف الأخير فقد أبقيته على حالة لاخلّد المجد والشهرة التي نالتها شجاعته الرائعة. فوجدوا هذا التدبير في غاية السمّو والنبل وصار بدعة يقلّدها الآخرون.

(١٢٩) هناك وصف لمقتل چكينو چلليني في كتاب (قصص العنف: ڤاركي الص ١١-٥٠).

(١٣٠) أصل إسمها (كنيسة سان جيوڤاني فلورنتيني) بوشر ببنائها في أيام الپاپا ليون العاشر وتم ذلك تحت إشرافه وساهم في هندستها وزخرفتها كل من ميكالنجلو وجاكوبو داسانسافينو وسان گاللو.

(١٣١) هذه ترجمتها التقريبية:

"في هذا الموضع يثوي جثمان فرانشسكو چلليني الفلورنسي. الشاب اليافع الذي حقق إنتصارات باهرة وكتبت له شهرة فائقة وأعطى البرهان على الشجاعة والقوة والمقدرة وعلى حسن المشورة منذ ان بلغت سنه الخامسة عشرة. أصيب بطلق ناري من بندقية إخترقت جسمه وهو يرقد هاهنا في الضريح الذي أعدّه له شقيقه بنڤنوتو چلليني.كانت وفاته في ٢٧ من ايار ١٥٢٩.

(١٣٢) ومعنى الإسم "الصادق إبن العازف على الناي".

وحفرتُ شعار أسرة چلليني[١٣٣] على الرخامة أيضاً إلاّ إني غيرتُ فيه قليلاً. ففي (راڤنّا) وهي مدينة عتيقة جداً، حيث تحظى أسرة چلليني بمقام رفيعٍ جداً وشعارها هناك يمثل رِجل الأسد الأمامية بلون ذهبي على أرضية زرقاء فاتحة. والمخلب الأيمن من الرجل الممسك بزنبقة حمراء وفوقها خطّ وثلاث زنابق ذهبية صغيرة. وهذا هو شعار آل چلليني الصحيح. والشعارِ الذي أطلعني عليه الوالد ليس فيه غير المخلب دون زنابق مع بقية الرموز الأخرى. إلاّ اني فضلّت شعار چلليني فرع (راڤنا) كما وصفتهُ آنفاً.

ولأعد الى ما نقشت منه على قبر أخي فقد جعلت في مخلب الأسد بلطةً حربية بدلاً من الزنبقة. ولم أغير من حقل الشعار. وإنِي ما أقحمتُ البلطة إلاّ لأذكرّ نفسي دائماً أبداً بواجب الثأر من قاتله.

وإنهمكت في شغلي محاولاً الفراغ من حلية الپاپا الذهبية. فقد كان شديد الإهتمام بإنجازها واعتاد أن يرسل بطلبي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد ليلقي نظرة عليها. ويزداد إعجابه وسروره بها كل مرّة يشاهدها. لكنه كان يكثر من لومي وتأنيبي أحياناً بغضبٍ، بسبب حزني العظيم لوفاة أخي. وفي إحدى المرات قال لي وقد راعه مني كآبتي وضعف حالي:

– بنڤنوتو! أفّ لك يا بنڤنوتو ماكنت أعتقدك مغفلاً الى هذا الحدّ. الم تكن تعرف ان الموت لاعلاج له؟ انك تبذل قصارى جهودك لتلحق به.

تركت مجلس الپاپا وعدت الى بيتي لأشتغل في الحلية وأعمالي في دار الضرب إلاّ اني بدأت في عين الوقت أتعقبّ البندقيّ الذي قضى على أخي وأراقبه مراقبة دقيقة كأنه فتاة هُمتُ بحبّها. كان هذا الرجل حيناً من الزمن جندياً في كتيبة الخيالة الخفيفة. ثم دخل مسلك شرطة البارجللو في فوج حملة البندقيات. ومما زاد في حقدي عليه إنه كان يتبحج ويفاخر بما قدمت يداه فيقول:

– لولا فتكي بذاك الشاب لألحق بنا هزيمة نكراء وصرع منّا عدداً كبيراً. لقد أصبته وقد كاد يقضي علينا.

أدركت بأن حالة الهمّ التي تلازمني لكثرة رؤيتي له قد حرمتني الأكل والنوم وأني أصبحت حُطاماً. لذلك كَبَتُّ السؤال الذي ظلّ يساورَني فلا أجد له جواباً قاطعاً: أمخلٌّ بالشرف ومهين للسمعة ما أنا مصمم عليه أم لا؟ وفي أمسيةٍ حزمت أمري على التخلص من عذابي.

كان الرجل يسكن في منطقة تسمىّ تورّي سانگونجينا (Torre Sanguigina) وداره ملاصقة لدار غانية من أشهر غانيات روما تدعى (سنيورا آنتيا Signora Antea). أعلنت الساعة الرابعة والعشرين ليلاً. ووجدت البندقي واقفاً على عتبة منزلة بعد أن فرغ من عشائه. فزحفت إليه وبيدي خنجر پستوييّ. وكان هو مسلحاً بسيفٍ ووجهت إليه طعنةً من الخلف قاصداً ان أفصل بها رأسه عن جسده لكنه إستدار فجأة فوقعت الضربة في أعلى كتفه الأيسر وقطعت العظم.

فقفز وقد طاشت الضربة بعقله من فرط الألم المبرح فأفلت السيف من يده ثم أطلق ساقيه للريح فجددت في أثره حتى أدركته وبيني وبينه خطوة أو إثنتين ثم هوت يدي بطعنة أخرى في عنقه.

(١٣٣) في المكتبة الوطنية بفلورنسا رسم لشعار الأسرة من عمل چلليني نفسه.

وغاص النصل عميقاً حتى باءت محاولاتي لإقتلاعه بالفشل. في تلك اللحظة وأنا أستخدم كل قوتي لجذبه – اندفع من بيت (آنتيا) أربعة جنود وبأيديهم السيوف مجرّدة. فاضطررت إلى تجريد سيفي لأدافع عن نفسي. وتركت الخنجر في موضعه ووليت الأدبار خشية أن يُفتضح أمري وتُعرف هويتي. وقصدت منزل الدوق الساندرو دي مديتشي ويقع بين ميدان (ناڤونا Navona) والروتوندا. ما ان إحتوتني جدران الدار حتى أفضيت للدوق بما حصل. وذكر مافهمت منه ان لا حاجة بي إلى التواري عن الإنظار إن كنتُ وحدي. وطمأنني قائلاً "واصل عملك في حلية الپاپا فهو يكاد لايصبر حتى تنهتي منها". ونصحني بأنه يفضل أن أشتغل في داري لمدة أسبوع. أضف الى كلّ هذا. إن الجنود الذين فاجأوني، ظهروا الآن على مرسح الأحداث ومعهم خنجري ووصفوا ما وقع وكيف انهم حاولوا ما يشبه المستحيل لإنتزاع الخنجر من عنق القتيل الذي لامعرفة لهم به. وفي أثناء ذلك لقيهم جيوڤاني باندیني وكشف لهم أن الخنجر هو خنجره واني قد إستعرته منه بقصد الإنتقام به من قاتل أخي. وعندما فهم الجنود ذلك راحوا يعتذرون لإعتراضهم سبيلي وان كنت قد أصبت ثأري كاملاً.

مَرّت ثمانية أيام ولم يرسل الپاپا في طلبي كعادته. بالأخير أرسل لي عن طريق أمين سرّه وهو النبيل البولوني الذي ذكرته آنفاً والذي أخطرني بلطف أن قداسته قد علم بكل شيء. إلاّ أن مَكانتي عنده باقية كما كانت وما عليَّ إلاّ أن أمضي قدماً في عملي وأن أبقى ساكناً. عندما لقينا الپاپا عبس بوجهي وبَسَر.

وكانت نظرات التهديد الحادة التي يرسلها كالنصال المرهفة تكاد تنزع عني روحي ولكن ماكاد يتفحص شغلي حتى إنفرجت أساريره وأضاء وجهه بالبشر وأطنب في مدحي قائلاً إنه لإنجاز رائع في وقت وجيز جداً. بعد هذا نظر الي شزراً وقال:

– الآن وقد شُفيت فأعط لحياتك حقهّا. وأعرف كيف تضع قدمك أي بنڤنوتو!

حزرت المعنى الذي يكمن في عبارته واجبته إني سأفعل حتماً. وسارعت ففتحت دكاناً ممتازاً جداً على الضفة مقابل دكان (رافاييللو) وهناك أكملتُ حلية الپاپا في غضون أشهر قلائل.

كان الپاپا قد بعث اليّ بكلّ الأحجار الكريمة المختارة لوضعها في الحلية ماعدا الألماسة فقد إرتهنها في ساعة الضيق لدى بعض الصيارفة الجنوبين. فكفّتُ الجواهر في أمكنتها. وأنزلت نموذجاً للألماسة في الموضع المخصص لها. كانت اشغالى وقتذاك رائجة جداً والناس يقصدونني متزاحمين ولذلك إستعنت بخمسة من الصاغة القديرين الجوّالين. وكان دكاني يضيق بما يحوي من النفائس بين الحلي الثمينة والأحجار الكريمة والذهب والفضة. فاقتنيت كلباً ضخم الجثة كثيف الشعر جميل الشكل هو هدية من الدوق (اليساندرو) كان بالأصل كلب صيد دُرِّب على قنص كل أنواع الطيور ومادبّ من الحيوان وهذا ما تأيد لي عند خروجي للصيد. على اني وجدته حارساً يقظاً لاتغفل له عين وبذات الكفاءة في الصيد. إذ ما يسقط الطير بعد إصابتي له حتى يعدو إليه ويأتيني به.

وأتفق وقد بلغت التاسعة والعشرين من العمر – أن اتخذت لي خادمة بيت رائعة الجمال بديعة

التكوين وإستفدت منها كنموذج. كما كنت أستمتع بها جنسياً موقّياً حق نزوات الشباب. ولهذا حرصت أن تكون غرفة نومي بعيدة بمسافةٍ عن غرف نوم الصنّاع وعلى مدىً من دكاني أيضاً. وأبقيت الفتاة في عليّةٍ صغيرة متداعية مجاورة لي. وكنت أختلي بها كثيراً وأستبقيها عندي حتى الصبح. وفي هذه الأحوال يثقل نومي أحياناً بعد ممارسة الجنس خلافاً للأحوال الإعتيادية. فأنا بالأصل أخف الناس نوماً.

في إحدى الليالي تشاء الصدف أن يقتحم لصٌّ دكاني. سبق أن أستعد للأمر بأن إنتحل صفة الصائغ وإستطلع الموقع وتعرّف جيداً الى الجواهر والحلي التي تحتويها دكاني فدبّر خطته للسطو عليها. دخل الدكان ولم يجد غير القليل التافه من الحلى الذهبيّة والفضيّة. وبينما هو منهمك في كسر بعض الإدراج بحثاً عن الجواهر التي شاهدها، هجم عليه كلبي فدافع عن نفسه بسيفه دفاعاً يشوبه الإرتباك. ثم ان الكلب شرع يجري هناك وهنا في أرجاء المنزل. فاقتحم غرفة نوم الصنّاع التي كان بابها مفتوحاً لحرارةٍ في الجوّ. ولم يوقظهم نباحه القوّي فبدء يسحب أغطيتهم عنهم بأنيابه ويجرهم من ثيابهم فلم يلقوا عليه بالاً وتجاهلوه. وعندئذ راح يعضّ الواحد بعد الآخر من ذراعه حتى أرغمهم على النهوض. ثم أطلق نباحاً شديداً محاولاً جرّهم الى إقتفاء أثره. إلاّ ان الاوغاد الملاعين لم يشاؤا مرافقته وحمي غضبهم منه وراحوا يقذفونه بالحجارة والعصي وكان ذلك سهلاً بالنسبة اليهم لأني كنت قد أوصيتهم بإيقاد النور طوال الليل. بالأخير أحكموا إغلاق الباب وحالوا بين الكلب وبينهم. فيئس من تلقيّ أي عون منهم ومرق الى الطابق الأسفل فلم يجد اللص في الدكان فإنطلق في أثره. ولما أدركه صال عليه وأمسك بتلابيبه ومزق معطفه وسحبه من ظهره. ماكان أحد يدرى مآل هذا اللص مع الكلب لو لم يستنجد ببعض الخياطين ويستحلفهم بمحبة الله أن يدفعوا عنه غائلة الكلب المسعور. فصدقوا قوله وإنبروا النجدته ولم يفلحوا في ردّ الكلب عنه إلاّ بشق الأنفس.

في صباح اليوم الثاني دخل صُنّاعي الدكان فشاهدوا أقفاله مكسورة والأدراج مفتوحة والإضطراب يسود جوانبه فبدأوا يتصايحون:

– النجدة! اللصوص!

فايقظتني صيحاتهم وإندفعت إليهم وقد تملكني الفزع. وما أن شاهدوني حتى بدأوا يصرخون:

– كان الله في عوننا. لصٌّ سلطا على الدكان وسرق كل ما فيها!

بلغ إرتعادي وهلعي حداً ماعدتُ بعده أملك الشجاعة للدنو من الخزانة وتفقدّ جواهر الپاپا، غشي الرعب على باصرتيّ فما عدت أرى شيئاً. وإستبد بي القلق العظيم فأمرت الصناع أن يفتحوا الأدراج بأنفسهم ويحصوا ما فُقد من الجواهر. ولأذكر هنا قبل أن يفوتني أن صنّاعي كلهم كانوا اشباه عرايا لاتكسو أجسامهم إلاّ قمصان نومهم. ففتحوا الخزائن والأدراج ليجدوا الأحجار الكريمة والحلية الذهبية كاملة لم ينقص منها شيء.

فعادوا حالاً يصرخون جذلين:

– كلّ شيء على مايرام. أشغالك مع الجواهر هاهنا كلّها. إلاّ أن اللص ذهب بكلّ ثيابنا ولم يُبق لنا

غير القمصان التي تكسو أجسامنا.

وبعدها بيّنوا لي انهم خلعوا ثيابهم كلها بسبب الحرارة الخانقة وتركوها في الدكان ليلة أمس. تمالكت نفسي حالاً وأفرخ روعي وبدأت أشكر اللّه ثم قلت لهم:

- إذهبوا كلكم وإبتاعوا لكم ثياباً جديدة وسأدفع ثمنها عندما أسمع منكم ماوقع بالضبط.

إن أكثر ما كان يقلقني أو بالأحرى يريعني، هو أن أجد نفسي الآن في حالةٍ ذعر مخيفة - وهذا ضدّ طبيعتي وما جُبلت عليه نفسيتي، وان اكون هدفاً للشك أيضاً إذ سيفكر الجميع بأني إخترعت قصة اللصّ لتغطية سرقتي أموالهم وجواهرهم. في الواقع إن واحداً من أقرب موظفي الپاپا وأوثقهم (فضلاً عن غيره مثل فرانشسكو دل نيرو F. del Nero، وزانا دى بيليوتي Zana di Biliotti محاسب الپاپا وأسقف ڤازونا Vasona[١٣٤]) كان قد قال الپاپا:

- أيها الأب الأقدس كيف تستأمن شاباً متهوراً ناري الطبع على هذه الجواهر العالية القيمة. شاب لم يبلغ الثلاثين بعد وميله الى القتال يفوق ميله الى الفن؟

فيجيب الپاپا بالسؤال التالي:

- هل يعلم أحد منكم بأنه أقدم على شيء يؤيد ظنونكم ويبررها؟

فيجيب مدير ماله (فرانشسكو دل نيرو) بسرعة:

- كلاّ أيها الأب الأقدس، لأن الفرصة لم تسنح بعد.

فيردُّ الپاپا بقوله:

- إنّ لي كلّ الثقة بأمانته ولو زلّت به القدم فعلاً لكذّبت نفسي.

عندما تذكّرت هذا فجأة إرتعدت فرائصي وأدركني الخوف فعلاً. وبعد أن أوصيت عمالي بشراء ثياب لهم، أخذت الحلية الذهبية ورتّبت الأحجار الكريمة بخير ما يمكن من التنظيم وحملتها لساعتي الى الپاپا. لم يضع (فرانشسكو دي نيرو) وقتاً في إبلاغ قداسته بشيء مما ذاع من الروايات حول ما وقع في دكاني. فأيقظ في نفسه شكّاً فجائياً. ثم تسرّع في إستنتاجه بأنَّ ما حدث هو أسوأ المتوقع. نظر اليَّ نظرةً صاعقة تنبيء بشرّ مستطير. وسألني بلهجة صارمة:

- ما الذي جاء بك؟ ما الأمر؟

- أنظر! هاهي ذي كل جواهرك وكذلك ذهبك. لم يفقد منها أي شيء.

فإنبسطت أساريره وقال:

- الآن إسمك على المسمّى فحافظ عليه. ألا "مرحباً بك".

وأريته ما عملته فيها وكنت أثناء تفحصّها أروي له قصّة اللص ومبلغ قلقي وما كان يحزّ في نفسي أكثر من أي شيء. وكان يتطلع اليّ بإستمرار ولايحول أنظاره عني طوال حديثي. وكان (فرانشسكو دي نيرو) موجوداً ولهذا إعتوره بعض الضيق لما ساوره من شكٍ فيّ.

بالأخير إنفجر ضاحكاً بسبب الخطبة الطويلة العريضة التي القيتها وقال وهو يبتعد:

(١٣٤) إسمه جيرولاموسكيو وهو كاهن إعتراف الپاپا. وڤازونا (ڤيزون بالفرنسية) تقع بالقرب من مدينة (آڤنيون).

– بنڤنوتو! فلتبق ذاك الرجل الأمين الذي عرفته بك.

وضاعفت جهودي في سبيل إنجاز اشغال الپاپا. في ذلك الزمن أيام كنتُ موظفاً ثابتاً في دار الضرب، إنتشرت في روما عملة مزيفة تحمل أشكال قوالبي. فجيء ببعضها الى الپاپا حالاً، وحامت الشكوك حولي وشدّد الپاپا على (جاكوبو بالدوچي Jacobo Balducci) الذي كان في حينه مدير دار الضرب بالسعي بكلّ الوسائل للقبض على المزيّف الحقيقي. لأنه واثق من أمانتي واستقامتي. إلاّ أن النذل الخبيث الذي كان من خصومي أجابه:

– أرجو اللّه أيها الأب الأقدس أن يصدق فيه قولك. فلدينا أسباب تحملنا على الشك فيه.

وعندها التفت الپاپا الى حاكم روما وأمره بأن يستعجل في العثور على الفاعل. وفي عين الوقت أرسل قداسته يستدعيني وراح بكلّ لباقةٍ يدير دفة الحديث متدرّجاً الى موضوع العملة حتى جاء الى بيت القصيد. قال:

– بنڤنوتو! أتراك قادراً على سكّ عملة مزيفة؟

أجبته في الحال إني لقادر على سكّ نقود متقنة الصنع أبزّ بها كل ممارسٍ لهذة العملية القذرة. ذلك لأنّ أولئك الذين إتخذوا هذا العمل الدنيء وسيلة رزق ومصدر عيشٍ هم ممن لايحذقون صنعةً ما تعينهم على الكسب والعيش الحلال ولايملكون مؤهلات ومهارة حقيقية. وأنا بمواهبي ومهارتي المتواضعة أكسب من المال أكثر مما أستطيع إنفاقه. ومنذ ان بدأتُ أعمل القوالب لدار الضرب وأنا أتسلّم كل صباح قبل تناول الفطور ثلاثة كراونات على الأقل. وتلك هي العادة المتبعة دائماً في دفع هذا المبلغ. وإن المحتال مدير دار الضرب يكرهني لأنه يريد أن يحصل على القوالب بسعر أقلّ. ثم ختمت كلامي بالقول:

– إن ما يسمح الله والبشر لي به من رزقٍ، فيه الكفاية وأكثر. وسيكون مكسبي أقل من هذا بكثير لو إنصرفت الى سكّ العملة الزائفة.

ووضح للپاپا قصدي جيداً. ففي حين كان قد أصدر أمراً بفرض المراقبة الدقيقة عليَّ في حالة إعتزامي الرحيل عن روّما أمر الآن بإجراء بحث دقيقٍ شامل عن الفاعل الحقيقي. وأن أُترك لحالي ولا أُضايق لأنه لايرغب في أن يجرح مشاعري خشية تركي الخدمة عنده. وأُعطيتْ هذه التعليمات المشددة لبعض موظفي القصر الرسولي. وبعد تنفيذ تلك الأوامر ووضعها موضع الإجراء الدقيق. توصلوا الى الرجل الذي يبحثون عنه فوراً تقريباً. وكان سكّاكاً يعمل في دار الضرب اسمه (چيزاري ماكاروني Cesare Macharone) وهو مواطن روماني. وقبضوا أيضاً على شريك له وهو سبّاك في دار الضرب أيضاً.

في ذلك اليوم بالذات اتفق اني كنت أمرّ بميدان (ناڤونا) وكلبي الجميل يدبّ في أعقابي. وما أن بلغت مدخل المقرّ العام للبارجلّو (صاحب الشرطة) حتى بدء الكلب ينبح بناحاً مسعوراً. ثم وثب وثبة كبيرة وإندفع من فتحة الباب وهجم على شابٍ كان هناك. أوقف هذا الشخص بتهمة سرقةٍ بناء على شكوى صائغٍ من أهالي[١٣٥] (پارما Parma) يُدعى (دونيّنو Donnino) كان سابقاً من تلاميذ

(١٣٥) من المدن الكبيرة الهامة في إيطاليا تقع شمال فلورنسا على بعد حوالي ١٧٠ كيلومتراً.